تعقيب عام

قبيل الشروع فى التعقيب على فلسفة رسل الأخلاقية فى الزواج والسعادة، يرى الكاتب أنه من الواجب عدم إغفال الجوانب الطيبة من فكر أى فيلسوف، فعلى الرغم من التعقيبات التى قد تكون على رؤية رسل للجنس والدين إلا أنه حاول جاهدًا تقديم نظرية جديدة تختلف عن الفكر الدينى المسيحى فى ذلك الوقت، وإن كانت هذه النظرية قُبلت بالرفض من دعاة الأخلاق والدين.

وعلى الرغم من عدم قبول نظرية رسل فى الجنس والزواج «إلا أن أهم ما تمتاز به فلسفتة أنها غير منغلقة على نفسها فى إطار عقائدى أو فكرى محدود وثابت، بل إنها فلسفة منفتحة تتأثر بالأحداث والنظريات العلمية والفلسفية، فتأخذ منها وتزيد عليها الكثير، وبذلك تُنّمى المعرفة الفلسفية وتفتح لها أبوابًا جديدة فى الموضوع والطريقة معًا»[1].

أضف إلى ذلك «أن فلسفة رسل تمتاز بكونها أقرب إلى الموضوعية فى البحث، وهذه ميزة لم نجدها عند كثير من الفلاسفة، اللهم إلا من كان فيلسوفًا وعالمًا أو عالمًا فيلسوفًا. كما لم يلتزم رسل بالدفاع عن وجهة نظر واحدة، ولم يهاجم الفلسفات الأخرى بالجدل العقيم والحجج الكلامية، بل كان يغير وجهة نظره إذا اقتنع علميًا وتحليليًا أنها غير قادرة على تقديم نتائج مفيدة للعلم والحياة، بل إننا نجده يعدل عن فلسفة أو نظرية كاملة فى سبيل الوصول إلى نظرية فلسفية أكثر عمقًا»[2].

ولكن إذا كانت فلسفة رسل تمتاز بهذه المميزات الفكرية الراقية، فليس عجبًا أن نقول أن برتراند رسل قد جانب الصواب فى تحليله لمشكلة الزواج وأخلاقيات الجنس، فالحكم على رؤيته فى موضوع الزواج هنا يتحدد من خلال رؤيته وموقفه من الدين، فمن المعروف لدينا أن رسل يدين بمذهب «اللاأدرية» فى الدين، فهو كفيلسوف لم يتخذ موقفًا ثابتًا سواءً بالإيمان أو الإلحاد، ولكن أراد أن يكون فى منزلة وسطى بين الإيمان والإلحاد، لذا عندما تناول

(1) ياسين خليل: مقدمة فى الفلسفة المعاصرة، منشورات الجامعة الليبية، ليبيا، الطبعة الأولى، 1970م، ص69.

(2) المرجع السابق: نفس الموضع.

رسل مشكلة الزواج وأخلاقيات الجنس جاءت رؤيته بعيده كل البعد عن الدين، حيث دعا رسل هنا إلى الحرية فى كل أمور الزواج، فرأى الدين عائقًا يعوق الإنسان الناضج فى شعوره بالسعادة الجنسية.

وهذه الرؤية التى قدمها رسل تقف على النقيض من رجال الدين ودعاة الأخلاق المسيحية، وهو أن ليس هناك ثمة أخلاق فلسفية أو أخلاق عامة فى معزل عن الدين، وبصفة خاصة كانت رؤية رسل هنا رؤية تطبيقية، وليست رؤية تنظيرية، فكان يقدم رؤيته الفلسفية من خلال تجربة الحياة المعيشة، وطالما كانت رؤيته منبثقة من خلال التجربة الحياتية فلابد أن تقبع رؤيته وفلسفته الأخلاقية هنا تحت إطار الدين.

ومن الخطأ الأكبر أن يجمع رسل الرؤية المسيحية فى أخلاقيات الجنس تحت عباءة القديس بولس، وكأن كل ما جاء به الدين المسيحى قد بشر وأخبر به القديس بولس. كما يمكن القول هنا أن رسل حين حاول معالجة مشكلة الحب وقع فى خطأ فادح، وهى أن يجعل للمرأة الحق فى أن تعشق رجلاً آخر غير زوجها، طالما كان من حق الرجل أن يحب إمرأة أخرى غير زوجته، فهذه الرؤية التى ينادى بها رسل هى عبارة عن خيانة كبرى، وليس ثمة وجود دين من الأديان يقر بالخيانة فى الحياة الزوجية، إلى الحد الذى جعله يضع نظريته فى الحب موضع التنفيذ، فسمح لأحد المعجبين بزوجته أن يسكن معه تحت سقف واحد.

ومن الأخطاء التى وقعت فيها فلسفة رسل فى الجنس، أنه أراد تطبيق المعرفة العلمية فى كل ما يتعلق بأمور الجنس، فكأن الجنس علم من العلوم المهمة، أو عقيدة من العقائد الدينية التى ينبغى على كل إنسان أن يتعلمها ويكون على دراية بها، لا سيما فى ذلك الأطفال والفتيات داخل الحرم الجامعى، فنظرية رسل هذه تقف على النقيض تمامًا من رؤية أى إنسان ناضج الفكر أو حتى رجل بسيط التفكير، فرؤية رسل هنا تعد فاتحة للخيانة وعدم الإتزان.